السندباد البري

رباب

« قالت شهرزاد : بلغني أيها الملك السعيد ، أنه كان في زمن الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد ، رجل يقال له السندباد الحمال وكان رجلا فقير الحال .. »
« الليلة (٥٢٤) من الف ليلة وليلة »

١ ـــ اللحن الاخير

« . . . . . .
وينجب الامير عشرة من الذكور
وعشرة من البنات ... كالبدور
ويرفل الجميع في الهناء والسرور
وتنقضي السنون يا مليكي السعيد
كأعين الديوك في الصفاء
ويقبل المصير فارط العقود
وفالق الرفيق والرفيق
وقاطع الطريق
فيدفن الشفاه في الجليد
ويأكل الحدق
وتشرب العيون من تراب
وفي الدجى يقام عرس دود
وتنتهي حكاية الحياه
كغنوة رطيبة تموت في الافق
مليكي السعيد
قصيرة وحلوة حكاية الحياه
كبسمة الصغير
كجرعة الحليب
كقبلة الحبيب للحبيب
كقصة العجيب سندباد . ! »
وادرك الصباح شهرزاد

***

٢ ـــ مدينة العذاب

« يقال يا مليكيَ السعيد
بسالف الزمان عاش سندباد
وكان في الرجال يشرب العرق
ويلبس الخرق
ويغرس الاصابع الغلاظ في اللهب
لينزع الرغيف
ويمضغ النهار علقماً الى المساء
وكان كالشراع اذ تغاله الرياح
فينتهي مزق .
وقيل شارف المحيط في صباح
وخلّف الصغار يعولون من سغب
وشم للمياه نكهة الرحيق
ومال نحو صخرة هناك من تعب
فحط « خرجه » الثقيل
وارسل البصر
ذكاء تنسج السماء خيمة من الذهب
وربّة المحيط تبلع العقيق
وتلفظ الصدف
وموجة تفور تغزل الزبد
وتلطم الصخور بالوشاح
وهذه الرمال هاتف من الابد
وهذه الهضاب كالقبور احجيات
اقامها على القرون ساحر عجوز
وفي ضلوعها الثقال خبأ الكنوز
فحار سندباد ما تخبيء البحار !!
واين ينتهي الرحال بالطيور !!
وأين يبدأ الافق !؟
وساءل الرمال عن حكاية الحياه
وساءل المياه
وحيرته ساعة رؤى الوجود
« ففي الوجود من طعام
وفي البحار والهضاب من نضار
كفاية البشر
فمالنا جياع !؟
ومالها ذكاء تلفح العراه
وتنحني على المدوّجين في حنان ؟!
وهذه الالوف في مدينة العذاب
حبيسة ـ كأنها النساء ـ خلف سور
تلوكها الصقور والنسور
شليلة الرجاء
مغيظة تشد في قنوطها الشعور
وتلعن السماء »
ففي مدينة العذاب يا مليكيَ السعيد
تباع بالدراهم النساء !
وتؤكل النساء
ويصلب الرجال خلف بابها الوصيد
ويوأد الصغار
وتشرب الدماء
وتقطع الاكف للذين يسرقون
وتنظم الرؤوس في عقود
وتسلخ الجلود
وعند بابها الكبير تربض الاسود
لتحرس الجحيم
وداخل الجحيم لا يعود !!
وكان سندباد هارباً من الجحيم
وخلفه عيال
فراح في اساه ينبش الرمال
ليدفن الدموع
وكالشعاع لاح هاتف من السواد
وعندها تبسم الحزين سندباد .. »
وادرك الصباح شهرزاد .

***

٣ ـــ حيرة السندباد

« مليكيَ السعيد
ـ وكالشعاع لاح هاتف من السواد
وعندها تبسم الحزين سندباد ـ

سفينة هناك في المدى البعيد
كأنما جناح طائر وضيءْ ..
– شراعها – يرف .. أو عروسْ ..
تسير في رشاقة النسيمْ
وتحتها البساط زرقة المحيط .
فلمّ سندباد بعض قشْ
وكاد يطلق الدخان للسفن
ليترك الجحيم الذين يقعدون
فخلف ذلك الأفق
يقال في بلاد « واقِ واقْ » !
مدائن كأنها الجنان
تفيض بالكنوز والثمار والحبوبْ
تفيض بالطيوب
وما بها خليفة لربْ
ولا بها سلاسل تقيد البشرْ
وما هناك تقطع الاكفْ
فليس فيهمو جياع !!
– وكاد سندباد يطلق الدخان –
« يموت من يموت
ويغرق الذين يغرقون
فنوح لا يلوح مرتين
وانما الخلاص للذين يركبون !!»
وكالذئاب هومت أمامه الصور
وأنشبت برأسه النيوبَ .. كالذئاب
ومزقت ضلوعه العجاف .. كالحرابْ
فكومة العيال في مدينة العذاب
تعض في التراب
وتسكت البطون بالبعوض والذباب
وتضرب الرؤوس في الجدر
وزوجة ضعيفة هناك .. أرْنبهْ
طريدة الكلاب
وحيدة بمهبط النسور .. قبّره
وسبحة الاكف والرؤوس
يطيلها خليفة الاله .. سلسله
ليربط العبيد بالسما
وكان يعشق اللحوم مثل غول
– خليفة الاله –
فيأكل الصغار في الفطورْ
ويأكل الكبار في الغداء
ويأكل النساء في العشاء
وزوجة الفقير سندباد
دجاجة تسوغ عند غول
فكلها لحوم !
– وكالذئاب هومت أمامه الصور
وأنشبت برأسه النيوب .. كالذئاب –
ايترك الألوف في مدينة العذاب
وبينها عياله الضعاف ..
وزوجه تسوغ عند غول !?
أينشد الحياة في بلاد « واق واق »
« وها هنا الكنوز والثمار والحبوب
وها هنا الطيوب
حبيسة القصور »!?
ولاح كالصباح هاتف صدوق
يشير للخلاص .. للطريق :
جماعة الطيور بعد رحلة الشتاء
تعود للوطن
فما لها تعود !?
وعاد سندبادْ...»
وأدرك الصباح شهرزاد

***

٤ ـــ الخلاص

« مليكيَ السعيد
وعاد سندباد للجحيمْ
ليصنع النعيم
ليجعل الحياة – كي تعاش –
عميقة عريضة كذلك المحيط
لتسخر الحياة بالمصيرْ
وان تكن قصيرة كبسمة الصغير
فطاف سندباد ينفخ النفير
– خليفة الاله يحبس الحياه
وينشر الوباء والخراب !
– وما الطريق سندباد ?!
وقصّ سندباد قصة الغرابْ
–«... وكان ينهب العشاش للطيور
ويخنق الفراخ
وتلطم الطيور او تنوح
وما يفيد في المصيبة النواح !
فذلك الغراب يعشق الدموع
وقالت الطيور : ما الطريق ..?
وعندها أشار طائر حكيم :
الى الغراب فاقتلوه
ودمروا عليه عشه الوثير
فنحن في العراء..والغراب في الحرير!!
حريرنا...جهودنا من الشروق للغروب
يغالها الغراب ...
وكالشتاء أمطروه بالجمار
وعلقوه قصة تقال للفراخ ..»
وأصبح الجميع سندباد !
فدمروا مدينة العذاب
وعلقوا الغراب !
وشيدوا مدينة « التبات والنبات » [1]
وزوجووا الذكور والبنات
وواصلوا الليالي الملاح
وداوموا على الغناء للصباح
وتنقضي السنون يا مليكيَ السعيد
كأعين الديوك في الصفاء
كجرعة الحليب
وقبلة الحبيب للحبيب
قصيرة وحلوة حكاية الحياه
كقصة العجيب سندباد .. »
وأدرك الصباح شهرزاد

القاهرة — نجيب سرور

١ هذا التعبير من تراثنا الفولكلوري فهو ملك لنا جميعاً ...